مقام الشكر
عند الصوفية

بقلم الأستاذ
أبو الوفا التفتازانى
مدرس الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب بجامعة القاهرة

قال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم »

من المقامات التى يتحقق بها السالكون من الصوفية فى طريقهم إلى الله مقام الشكر . وتحقق الصوفى بالشكر يعنى أن يكون معترفا بنعمة المنعم عليه مع استشعار الخضوع له تعالى .

وقد تحدث شيوخ الصوفية عن مقام الشكر ، فعبر كل واحد عن ذوقه ووجده . فقال بعضهم : « الشكر ينقسم إلى شكر باللسان وهو اعترافه بالنعمة بنعت الاستكانة ، وشكر بالبدن والأركان وهو اتصاف بالوفاق والخدمة ، وشكر بالقلب وهو اعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة » .

وقال أبو عثمان ، وهو أحد كبار شيوخهم ، : « شكر العامة على المطعم والملبس ، وشكر الخواص على مايرد على قلوبهم من المعانى » .

وميز بعض الصوفية بين الشاكر والشكور فقالوا : الشاكر الذى يشكر على الموجود والشكور الذى يشكر على المفقود » .

وحذر بعض الصوفية من الركون إلى النعمة والتشاغل بها عن المنعم سبحانه ، ومن هؤلاء الشبلى إذ يقول: « الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة » .

وقد تعمق الشاذلية من الصوفية

فى فهم معانى الشكر ، وربطوا بينه وبين آداب السلوك العملية . فلا يجد الشاذلية غضاضة فى أن يتمتع السالك بنعم الله عليه بشرط الشكر لله ، وعندئذ يكون الشكر مفتاحا للواردات الإلهية والمزيد منها . وتروى عن أبى الحسن الشاذلى هذه الرواية اللطيفة ، فقد قال يوما لأحد تلاميذه : « يا بنى برد الماء ، فإنك إذا شربت الماء الساخن فقلت الحمد لله تقولها بكزازة وإذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله استجاب كل عضو فيك بالحمد لله » . والأصل فى هذا قوله سبحانه وتعالى حكاية عن موسى عليه السلام : فسقاهما ثم تولى إلى الظل ، ألا ترى كيف تولى الى الظل قصد الشكر لله على ما يناله من النعمة ؟

وقد قسم ابن عطاء الله السكندرى الشكر الى ثلاثة أقسام : « شكر اللسان ، وهو التحدث بالنعمة ، واليه الإشارة بقوله تعالى : « وأما بنعمة ربك فحدث » ، وشكر الأركان وهو العمل بطاعة الله وفيه يقول تعالى : « اعملوا آل داود شكرا » ، وشكر الجنان وهو الاعتراف بأن الله وحده هو المنعم ، وأن كل نعمة بأحد من العباد فهى منه وحده ، وفيه قوله تعالى : « وما بكم من نعمة فمن الله » .

ولكل انسان عند ابن عطاء الله بحسب حاله ، نوع من الشكر : فإذا كان الإنسان ذا علم فشكره لله على ما هو فيه من نعمة العلم المتبين والإرشاد للناس ، واذا كان ذا غنى فشكره فى هذه الحالة يكون بالبذل والإيثار للعباد ، أما اذا كان ذا جاه وسلطان فشكره لله يكون بدفع الأضرار والأنكاد عمن يشملهم جاهه وسلطانه .

ومن هذا الكلام عن الشكر تتبين صورة لما ينبغى أن يكون عليه المجتمع الفاضل فى رأى ابن عطاء الله ، فهو يرى واجبا على العلماء فى المجتمع هداية الناس ، وهذا يقتضى منهم ألا يضنوا على غيرهم بما علموا ، وهو يعنى أيضا ألا يكون العلم شأن طبقتهم فحسب بل ينبغى أن يكون حظا مشتركا بين الناس جميعا ، يفيدون منه فى تهذيب أخلاقهم ورقى حياتهم

وكذلك يرى صوفينا أن الأغنياء لابد لهم من أن يتحققوا فى حياتهم بالإيثار فيعطفون على الفقراء ويبذلون اليهم مما فى أيديهم ، واذا كان واجب الأغنياء فى المجتمع البذل والإيثار، فواجب السلاطين والحكام ومن اليهم أيضا ممن يقودون زمام الناس ويوجهون حياتهم أن يدفعوا عن الناس ما يكون فيه ضررهم وأن يكونوا محققين للعدالة الاجتماعية .

وبهذا يفهم ابن عطاء الله مقام الشكر فهما شاملا عميقا يدل على أنه لم يكن من الصوفية الذين ينزوون تعبدا وتأملا ويجهلون كل شىء عن حياة المجتمع الذى يعيشون فيه .

ويؤكد السكندرى كذلك ضرورة شكر السالك للنعم ، فإن هذا الشكر هو الموجب لبقائها فيقول لمريده : « من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ومن شكرها فقد قيدها بعقالها » . ويقول فى رسالة أرسلها الى بعض إخوانه بالإسكندرية : « .. وقد ضمن الله المزيد للشاكرين وما استثنى فقال عز من قائل : « لئن شكرتم لأزيدنكم » فإذا كان قد ضمن لهم الزيادة على ما أعطاهم فكيف لا يديم عليهم ما كان منحهم أولا ! ألا إن من أحب بقاء شىء قيده بعقاله خيفة زواله فقيدوا نعم الله فيكم بوجود الشكر » .

ويحذر ابن عطاء الله السالك من أن يكون جاهلا بنعم الله عليه حال وجودها ، وليخش أن يسلبها عنه فيعرفها بعد هذا السلب ، وفى هذا يقول له : « من لم يعرف قدر النعم بوجدانها عرفها بوجود فقدانها » .

ويبين ابن عطاء الله أن أدب السالك أن يكون قائما على الدوام بشكر الله بحيث إذا وردت عليه النعم لم يشغله فرحه بها عن شكر المنعم لأن هذا دال على عدم صدقه فى عبوديته لله وفى هذا يقول له : « لاندهشك واردات النعم عن القيام بحقوق شكرك فإن ذلك مما يحط من وجود قدرك » .

ولكن ماذا يكون موقف السالك اذا ما أسدى اليه أحد من الخلق معروفا ؟ يجيب ابن عطاء الله على هذا بأن السالك يجب عليه أن يقوم بواجب الشكر للخلق لأن الشريعة

تقتضى منه أن يفعل ذلك ، وإن كانت الحقيقة تقتضى منه أن يعلم يقينا أن الله هو الذى يمن على الإنسان وليس الخلق ، لأن الله هو المنفرد فى ملكه بالمنة ، غاية مافى الأمر أن الله أراد أن يجرى المنة على أيدى عباده ليوصلها إلى من يشاء ممن يخصهم بعنايته

وهنا يستشهد السكندرى بقصة عائشة رضى الله عنها استشهادا جميلا فيقول : ، إن كانت عين القلب تشهد أن الله واحد فى منته فالشريعة تقتضى أنه لابد من شكر خليقته ، وإن الناس فى ذلك على ثلاثة أقسام : غافل منهمك فى غفلته ، قويت دائرة حسه وانطمست حفيرة قدسه فنظر الإحسان من المخلوقين ولم يشهده من رب العالمين ، أما إعتقادا فشركه جلى وأما إستنادا فشركه خفى ، وصاحب حقيقة غاب عن الخلق بشهود الملك الحق وفنى عن الأسباب بشهود مسبب الأسباب ، فهو عبد مواجه بالحقيقة ظاهر عليه سناها سالك للطريقة قد استولى على مداها غير أنه غريق الأنوار ومطموس الآثار ، قد غلب سكره على صحوه وجمعه على فرقه وفناؤه على بقائه وغيبته على حضوره ، واكل منه عبد شرب فازداد صحوا وغاب فازداد حضوره فلا جمعه يحجبه عن فرقه ولا فرقه يحجبه عن جمعه ولا فناؤه يصده عن بقائه ولا بقاؤه يصده عن فنائه يعطى كل ذى قسط قسطه ويوفى كل ذى حق حقه ، وقد قال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه لعائشة رضى الله عنها لما نزلت براءتها من الإفك على لسان رسول الله ﷺ : ياعائشة اشكرى رسول الله ﷺ ، فقالت والله لا أشكر إلا الله . دلها أبو بكر رضى الله تعالى عنه على المقام الأكمل مقام البقاء المقتضى لإثبات الآثار ، وقد قال الله تعالى : « أن أشكر لى ولوالديك » ، وقال ﷺ : لا يشكر الله من لا يشكر الناس . وكانت هى فى ذلك الوقت مصطلمة عن شاهدها غائبة عن الآثار فلم تشهد إلا الواحد القهار » .

أبو الوفا التفتازانى